سؤال المنهج في مشاريع القراءات الحداثية للنص القرآني

محمد بنعمر *

عضو فريق قراءة الوحي بمركز الدراسات وجدة (المغرب)

Curriculum question in modernist readings of the Qur'anic text projects

تاريخ الاستلام: 2021/02/06 تاريخ القبول: 2021/08/06 تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص:

اختلفت عدة نخب ثقافية في اشتغالها على المشروع التأويلي في التوجهات الفكرية والرؤى الثقافية المذهبية. لكن القاسم المشترك الذي يجمع هذه النخب هو دعوتها على ضرورة تخطي المناهج الكلاسيكية والقديمة في النقد والقراءة والتفسير عن طريق الاستعانة بالمناهج الحداثية. بما تحقق من تراكمات وإنجازات في العلوم اللغوية والاجتماعية، لأن هذه المناهج قامت بالأساس على تجاوز سلطة النص التي تسعى إلى تكريس سلطة النموذج الواحد في فهم النص وتمثل معناه ومعارضة بشكل قطعي كل احتمالية للنص في تعدد المعاني.

كلمات مفتاحية: المنهج؛ الحداثة؛ القرآن.

Abstract:

Several cultural elites differed in their work on the hermeneutic project in intellectual trends and cultural doctrinal visions. But the common denominator that unites these elites is their call for the necessity of transcending the classical and old methods of criticism, reading and interpretation by using modern methods. With the achievements and accumulations achieved in the linguistic and social sciences, because these approaches were based mainly on overcoming the authority of the text, which seeks to devote the authority of a single model in understanding the text and representing its meaning and categorically opposing every possibility of the text in the multiplicity of meanings.

Keywords: curriculum; modernity; The Quran.

* **محمد بنعمر**، عضو فريق قراءة الوحي بمركز الدراسات وجدة (المغرب) Omar310@Live.Fr

1. مقدمة: إشكال أولي:

من ابرز القضايا التي تستوقف الباحث والمتابع والدارس لما يكتب حول القرءان وتفسيره في الفترة المعاصرة هو ظهور بعض الاتجاهات المعاصرة الداعية إلى قراءة القرءان الكريم قراءة حداثية وجديدة وفق المستجدات والتحولات التي طرأت على المناهج الحديثة والمعاصرة خاصة ما تعلق باللسانيات ومناهج تحليل الخطاب....

ومما حملته هذه المشاريع أنها أخذت عدة أسماء منها: - القراءات الجديدة - القراءات الحداثية- القراءات المعاصرة- إلى غير ذلك من الأسماء التي تقترحها الدكتورة رقية العلواني.... وهذه الأسماء تشترك في قاسم واحد وهو إعادة قراءة القرءان الكريم بدعوى أن ما بذله علماء التفسير من جهود واجتهادات لم توف القرءان حقه من البحث والقراءة والدراسة..

وما يجمع هذه الاتجاهات (اختلفت الأسماء والمسميات في تسمية هذه الاتجاهات فهناك من يدعوها بالاتجاهات المعاصرة. وهناك من سيسميها بالاتجاهات الجديدة وهناك من يسميها بالقراءات الحداثية ...). إنها تدعو إلى قراءة حداثية للنص القرآني مستغلة أهم التحولات الجديدة والطارئة على مناهج القراءة وتحليل الخطاب خاصة اللسانيات المعاصرة ومناهج تحليل الخطاب.إذ دعا المناصرون لهذا الاتجاه إلى تسخير الآليات المعاصرة والحديثة في قراءة النص القرآني وتأويله بدعوى أن الحاجة ماسة وضرورية لإعادة القراءة.

ومن المبادئ الكبرى للاتجاهات الحداثية في القراءة والتأويل هو سعيها نحو التقاطع مع كل الجهود المبذولة في التفسير وهي الجهود التي بذلها علماء التفسير القدماء على امتداد التاريخ في تفسيرهم للقرآن الكريم. بدعوى أن هذه الجهود اختزلت التفسير في مناصرة

المعنى الواحد ومنح المفسر السلطة في القراءة... ذلك أن النص القرآني يحمل معنى واحدا أودعه الله في النص وألزم المفسر أن يكشف عنه ويقف عنده دون مجاوزة أو تعدية وان مهمة المفسر تتحدد في الكشف عن ذلك المعنى والالتزام به ودون الخروج عنه بأي حال من الأحوال....

فعلى الرغم مما بذل من جهود بجي لا يخفى على أي احد أن جهودا كبيرة بذلت في تفسير القرءان الكريم وهي جهود تكشف عنها حجم الدراسات والبحوث المنجزة في التفسير.مع ذلك فان هذه المشاريع الحداثية تعد هذه الانجازات لم تصل بعد الى المعنى المودع في النص..

2- اشكالية تفسير النص في التراث العربي الإسلامي:

يعد مشكل تفسير النص من أبرز المشاكل المعرفية والمنهجية التي أثارتها كثير من الثقافات والحضارات الإنسانية، ومما زاد من أهمية هذا الموضوعي في العصر الحديث هو التطور الكبير الذي مس اللغويات المعاصرة بشكل عام ومناهج تحليل الخطاب بشكل خاص.

ونظرا لأهمية النص في بنية الثقافة العربية الإسلامية فإن الهاجس الذي شغل هذه الثقافة هو هاجس تفسير النص وبيان دلالته اللغوية والشرعية.

وبمقتضى هذه المرجعية التي نالها النص في فضاء الثقافة العربية الإسلامية، فإن كثيرا من الدارسين والمشتغلين بمناهج تحليل الخطاب اختاروا وصف الثقافة العربية الإسلامية بأنها ثقافة نص، وهذا الوصف يعود أن الثقافة الإسلامية قامت في أصولها الأولى على النص المؤسس وهو القرآن الكريم.

ومحورية النص في فضاء الثقافة الإسلامية قاد جميع العلوم خاصة البيانية منها إلى خدمة النص في عدد من مستوياته ومكوناته سواء على مستوى التوثيق والتحقيق أو على مستوى البيان والتفسير والقراءة.

وإذا كنا نقر بأن تفسير النص شكل قطاعا مشتركا بين كثير من النظم والمعارف التي شكلت المحاور المعرفية الكبرى في التراث العربي الإسلامي، فإن ما قدمه علم أصول الفقه وعلم التفسير بشهادة الكثير فاق ما قدمته النظم المعرفية الأخرى خاصة فيما اتصل بقضايا القراءة والتأويل والبيان..

فعلم أصول الفقه من أهم العلوم التي استطاعت أن تضع نظرية متكاملة في تفسير النص وتأويله، لأنه علم يؤسس منهج الاستنباط ويقوم عملية الاجتهاد ويسدد النظر في الفهم على قانون علمي صارم ومضبوط، ولا يتيسر الاستنباط إلا بفهم النص وفق ضوابط اللغة العربية وأعرافها في الأداء، بحيث لا تظهر ثمرة الاستدلال إلا بفهم النص كما صرح الإمام الشاطبي في الموافقات قال في الموافقات: "لا تظهر ثمرة الفهم إلا في الاستنباط"(الموافقات: 4/.117).

فتوجه علم أصول الفقه نحو التفسير والقراءة والبيان شيء معترف به بين الباحثين والدارسين، وهو توجه يجد مبرره في توقف الاستدلال على فهم النص وإدراك حمولته اللغوية ومعانيه الشرعية، لان الفهم هو الطريق الأول للاستنباط.

ذلك أن موضوع علم أصول الفقه هو الاستنباط والاستدلال واستجلاء دلالة الخطاب وهذا لا يتأتى إلا بفهم النص الشرعي فهما سليما ومنضبطا تقره ضوابط اللغة العربية وتشهد له أصولها في التعبير والأداء والإبلاغ.

وهذا ما جعل مصنفات ومدونات علم أصول الفقه مثقلة بالمباحث اللغوية والبلاغية الدلالية والمعجمية، وهي مباحث هدفها والقصد منها فهم النص القرآني فهما

منسجما مع طبيعة اللغة العربية ومعهودها في التخاطب وأصولها في التفسير ومنطقها في البيان دون حجب أو تحريف أو إبعاد للنص عن معناه الحقيقي.

لقد كانت كل الاتجاهات الفقهية واللغوية والنحوية في التفسير تسعى إلى الوصول إلى معنى النص القرآني، لكن الذي يمكن قوله إن علماء الأصول حاولوا أكثر من غيرهم بناء وتشييد نظرية دلالية متماسكة ومنسجمة في الفهم والتأويل والقراءة لغاية تمثل المعنى في النص....

3. أهمية النص في الثقافة العربية الإسلامية:

لا يخفى الأهمية التي يحتلها النص القرآني في فضاء الثقافة العربية الإسلامية داخل المنظومة الثقافية الإسلامية وهي مكانة لا نجد لها مثيلا في الديانات السماوية السابقة وهي المكانة التي جعلت علماء الإسلام على اختلاف مدارسهم يبذلون جهودا كبيرا ومضنية لضبط المعنى في النص القرآني.. فالتفسير والبيان شكلا الرهان الأساسي عند علماء الإسلام...

ومن ثم فقد يحظى النص بموقع خاص في التراث العربي الإسلامي، لأن النص الشرعي الذي يتحدد في القرآن الكريم والسنة النبوية يشكل الإطار المرجعي في معرفة أحكام وهذه الأهمية هي التي جعلت جهود العلماء تتجه نحو العناية بالقرآن الكريم فلقد بذلت في علوم القرءان الكريم وتفسيره جهودا بحثية كبيرة وهي جهود لم تبذل في غيره من الكتب السماوية، ولقد غطت هذه الجهود عدة حقب بحيث غطت جميع فترات التاريخ وهو ما تكشف عنه كتب الفهارس والتراجم المخصصة لعلم التفسير(الشاهد البوشيخي، د ت).

وقد عملت هذه الجهود على ضبط معنى القرآن الكريم وتوجيه فهمه وذلك عن طريق تسديد النظر الصحيح في الفهم والتمثل واكتساب الدلالة. بوضع القواعد ورسم

الضوابط الفاصلة والحاكمة للاستنباط السليم من الفاسد والتفسير الصحيح والمقبول من التفسير المردود....

والذي ترسخ في وعي الدارسين والباحثين قديما وحديثا رغم اختلاف التخصص وتنوع التوجه أن جميع العلوم التي نشأت في الحضارة الإسلامية إنما هي علوم خادمة للنص. ذلك ان اغلب العلوم اتجهت نحو خدمة القرآن الكريم في جميع جوانبه ومستوياته ومكوناته خاصة ما اتصل بالتوثيق والتحقيق والرسم والقراءة وكذا ما اتصل بالبيان والفهم والتفسير والاستمداد...(الرابطة المحمدية للعلماء، 2008). فلما كان الوحي هو مركز المعرفة في التراث الإسلامي نشأت جميع هذه العلوم والمعارف انطلاقا من هذا المركز...(مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، 2011).

فلقد تحول النص الشرعي عامة والقرآني خاصة ليكون منطلقا لكل الجهود الفكرية والعقدية للمسلمين وقطب الرحى الذي تدور حوله مختلف الدراسات والبحوث.

فهذا الأصل المعرفي الثابت هو ما جعل كثيرا من الباحثين يرى أن عطاء الفكر العربي الإسلامي وإبداعه إنما نشا ابتداء وأساسا من خلال تعامله المباشر مع النص القرآني توثيقا وتحقيقا وفهما وضبطا وبيانا واستمدادا....(ناصر أبو زيد: 22).

فلقد شكل القرءان الكريم منطلق كل الجهود الفكرية والعلمية في التراث العربي الإسلامي. وهو ما نجم عنه تحقق نوع من التكامل بين العلوم خاصة العلوم الخادمة للنص القرآني.

4. الاتجاهات التأويلية الجديدة و الحداثية في قراءة القرآن الكريم وتفسيره:

رغم الجهود البحثية التي بذلت في تفسير القرآن الكريم. فإن هذه الجهود العلمية لم تكن مانعا أو حائلا من ظهور حركة تأويلية حداثية في العصر الحديث تدعو لنفسها

بالريادة والأسبقية المعرفية والأسبقية المنهجية في تفسير النصوص الدينية وتأويلها بشكل عام والنص القرآني بشكل خاص. بغية حل الإشكالات الدلالية واللغوية التي تطرحها هذه النصوص القرآنية بشكل عام .

ولقد شكل البحث في قراءة النص احد أهم الانشغالات والاهتمامات الفكرية التي استقطبت اهتمامات الباحثين في الدراسات القرآنية في العقود الثلاثة الماضية.وهذا يعود إلى دور القرءان الذي يشكل مركز المعرفة في العقل العربي الإسلامي ومحور المعارف التي نشأت في الحضارة الإسلامية...

ومن دعوات أصحاب هذا الاتجاه التأويلي أن المناهج الجديدة في التفسير والتأويل المستمدة ممن مناهج تحليل الخطاب ستكون بدوم شك بدائل منهجية لكل المناهج التقليدية التي سادت لفترات طويلة في ميدان التفسير والتأويل. وهيمنت على كل الجهود العلمية التي تعاطت لتفسير النصوص وتأويلها(رقية العلواني، 2006. إدريس الطعان، د ت. عبد المجيد النجار، 2006. الجيلالي بن التوهامي، 2006. محمد محمود كالو، 2010).

ومن توجهات هذا الاختيار انه نعت الجهود السابقة بأنها جهود تقليدية من جهة وتقعيدية من جهة أخرى لا هم لها سوى وضع القواعد والمعايير للكشف عن معنى النص وهو ما أدى إلى غياب الوعي بعملية الفهم والقراءة والى التغييب العديد من عناصرها وهمها إضافة إلى إهمالها لدور المفسر أو القارئ في عملية الفهم والتفسير ...

ومن أهم النتائج التي أسفر عنها هذه الجهود ان دور المفسر هو استمداد المعنى الذي يحمله النص القرآني دون زيادة لان المنطلق المنهجي في التفيسر هو استمداد هذا المعن انه هو المقصود والمراد كما وصفت جهود السابقين أنها تخضع لسلطة النموذج فهي خاضعة لسلطة النموذج وهو النموذج الذي ارسي دعائمه الإمام الشافعي، والسند الذي استند إليه أصحاب القراءات الجديدة في ادعاءاتهم أن هذه المناهج الجديدة في التفسير والتأويل ستكون بدائل منهجية للقراءات التقليدية والقديمة التي انتصرت للمعنى الواحد ولم

تعمل على مجاوزته ذلك ان الاتجاه الحداثي في القراءة يعمل على إثراء المعنى وتنويع القصد. وتجعل النص أكثر اتساعا ورحابة في قبول التعدد والانفتاح فهم القرءان. فهذه المناهج تعمل على اختراق المعاني المألوفة والمضامين والدلالات المعهودة وتسمح بالتأويلات المتعددة وتصادر القراءة الأحادية التي لا ترى في النص إلا معنى واحدا وتحضر الانفتاح ولا ترفع من شأن القراءة المتعددة التي لا ترى مانعا في تعدد المعنى للنص الواحد حتى وإن كان هذا التعدد يفضي إلى استشكال المعنى في الاختلاف...(وجيه قانصو، 1430هـ).

وسندهم في هذا الإدعاء أن القراءة ذات المعنى الواحد للنص الواحد هي قراءة ثابتة وراكدة تمنح السلطة للنص بدل القارئ .وهو ما يجعل القارئ للنص تحت الرقابة والوصاية من قبل النص لا يمتلك أية حرية أو سلطة أمام النص(مصطفى ناصف، 2000).

بالمقابل اعتبر المناصرون لهذا الاتجاه أن النص المكشوف والواضح نص راكد لا حياة فيه بطئ الحركة يتصف بالثبات و يستوي في معرفته وتفهمه الجميع. وترتفع منه المفاضلة وتلغى منه المنافسة وتتساوى فيه المؤهلات والإمكانيات والطاقات.

فالنصوص قسمان: نصوص إشكالية وهي النصوص التي لا تطاوع قارئها بيسر وسهولة ولا تنقاد له إلا بعد بحث شديد ومضني.كما أنها لا تبوح بمكنوناتها إلا بعد جهد ومشقة وعناء. بالمقابل هناك نصوص مبتذلة وسطحية تنقاد لصاحبها بيسر وسهولة وتمنحه المعنى بسهولة بدون جهد ولا عناء...

ولقد اشتغل على هذا المشروع التأويلي عدة نخب ثقافية وفعاليات فكرية تختلف في التوجهات الفكرية والرؤى الثقافية المذهبية. لكن القاسم المشترك الذي يجمع هذه الفعاليات هو دعوتها بشيء من الإلحاح على ضرورة تخطي المناهج الكلاسيكية والقديمة في النقد والقراءة والتفسير عن طريق الاستعانة بالمناهج الحداثية. بما تحقق من تراكمات

وإنجازات في العلوم اللغوية والاجتماعية(مصطفى ناصف، 2000)، فهذه المناهج قامت بالأساس على تجاوز سلطة النص التي تسعى إلى تكريس سلطة النموذج الواحد في فهم النص وتمثل معناه ومعارضة بشكل قطعي كل احتمالية للنص في تعدد المعاني. وهو النموذج الذي أرسى دعائمه الإمام الشافعي، فالتعدد في القراءة هو منبع الانفتاح الدلالي بحيث يجعل النص منفتحا على عوالم دلالية جديدة تتجدد بتجدد فعل القراءة. كما أن النص المفتوح يثير المتلقي ويستهويه من أجل الإقبال عليه(عبد المالك مرتاض، 2000).

كما اعتبر دعاة التأويلية أنه لا سبيل إلى معانقة الحداثة إلا بالتخلي عن المناهج الكلاسيكية القديمة المنسوبة إلى المفسرين القدماء في قراءة النصوص وتأويلها(محمد المتقن، 2004).لأنها مناهج عقيمة غير منتجة تنتصر للمعنى الواحد ولا تلتفت إلى الانفتاح...

ومن أبرز التحولات المعرفية التي عرفها الاتجاه التأويلي في قراءة النصوص ونقدها هو انتقال هذا المنهج من نقد النصوص الدينية القديمة التي نقد النصوص البشرية خاصة ما كان من قبيل النصوص الأدبية والنقدية (حسن حنفي، 1992).

ولقد ساهم في هذا التطور التحول الكبير الذي مس الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية في الآونة الأخيرة بسبب تداخل هذه العلوم مع العلوم الإنسانية واستفادتها من مناهجها ونتائجها. بحيث أخذت هذه المناهج تعبر إلى الدراسات الأدبية والنقدية بدعوى أن هذه المناهج بمقدورها حل مشكلة ومعضلة تفسير النصوص لأن من أساسيات هذه المناهج هو أن السلطة في قراءة النص هي للقارئ وليس للنص(فاضل تامر، 1988).

وأمام اتساع دائرة الاتجاهات التأويلية والنقدية في نقد النصوص وقراءتها خاصة ما كان من قبل النصوص الأدبية فقد دعا مستخدمو هذه المناهج إلى نقل تجاربهم وخبراتهم من أجل تطبيقها في قراءة القرءان الكريم وتفسيره. وقد تزامن هذا التوجه مع ظهور الاتجاهات التأويلية التفكيكية التي لا تؤمن إلا بالعقل المتحرر من كل السلط والقيود. وأن

القداسة في الكتب المقدسة يجب أن ترفع من أجل الوصول إلى التسوية بين النصوص الدينية والنصوص البشرية.

إن المنعطف في ما حملته مشاريع القراءات الحداثية في دعوتها إلى تطبيق مبادئها على النص القرآني وفق التوجهات الجديدة في تفسير النصوص وتأويلها هو إصرارها على التخلص من قيود التفسير وضوابط التأويل كما هي مودعة ومؤصلة في كتب أصول التفسير. لأن هذه القواعد من شأنها أن تجرك إلى معنى واحد أودعه الله في كتابه. وهذا المعنى صار معنى ملزما للقارئ بحيث يحضر المصير إلى معنى آخر(أحمد الطعان، 2009).

إذ من الثابت أن النص القرآني في دلالته على المعنى لا ينفك عن القانون والنظام اللغوي للغة العربية الذي تعد جزءا منه وأحد مكوناته مما يجعل التقيد بهذا النظام اللغوي من أحد شروط التفسير(ناصر أبو زيد: 89).

ومن ادعاءات العاملين في هذا المشروع قولهم بأن تفاسير القدماء للقرآن الكريم مارست رقابة قوية ووصاية شديدة على النص ووضعت حواجز كثيرة على كل من أراد أن يخترق الحدود والشروط في تفسير القرآن الكريم وتأويله. فلا سبيل لتفسير القرآن الكريم إلا بالانضباط بقواعد التفسير والتقيد والاحتماء بضوابط التأويل وفق ما هو مؤصل ومقنن في كتب أصول التفسير و مقرر في علوم القرآن.

ولقد عمل المناصرون لهذا الاتجاه على الدفع بقوة بمشاريعهم حتى تكون مشاريع بديلة لكل الإنجازات والتراكمات التي تحققت في ميدان التفسير في كل العصور.

ومما استند إليه المناصرون لهذه المشاريع هو قولهم بوجود أشكال تخاطبية وتفسيرية في التراث تقر بالتعددية الدلالية في النص القرآني الواحد وتساند القول في انفتاح النص لأكثر من معنى وعدم انضباط المعنى ونسبيته في النص القرآني .لخضوع هذا المعنى للمحيط الثقافي والفكري والحضاري الذي فيه نزل القرآن الكريم.

وسندهم في هذا الإدعاء أن القراءة ذات المعنى الواحد للنص الواحد هي قراءة ثابتة وراكدة تمنح السلطة للنص بدل القارئ .وهو ما يجعل القارئ للنص تحت الرقابة والوصاية من قبل النص لا يمتلك أية حرية أو سلطة أمام النص(مصطفى ناصف، 2000).

بالمقابل اعتبر المناصرون لهذا الاتجاه أن النص المكشوف والواضح نص راكد لا حياة فيه بطئ الحركة يتصف بالثبات و يستوي في معرفته وتفهمه الجميع. وترتفع منه المفاضلة وتلغى منه المنافسة وتتساوى فيه المؤهلات والإمكانيات والطاقات.

فالنصوص قسمان:نصوص إشكالية وهي النصوص التي لا تطاوع قارxxها بيسر وسهولة ولا تنقاد له إلا بعد بحث شديد ومضني.كما أنها لا تبوح بمكنوناتها إلا بعد جهد ومشقة وعناء.

بالمقابل هناك نصوص مبتذلة وسطحية تنقاد لصاحبها بيسر وسهولة وتمنحه المعنى بسهولة بدون جهد ولا عناء...

ولقد اشتغل على هذا المشروع التأويلي عدة نخب ثقافية وفعاليات فكرية تختلف في التوجهات الفكرية والرؤى الثقافية المذهبية. لكن القاسم المشترك الذي يجمع هذه الفعاليات هو دعوتها بشيء من الإلحاح على ضرورة تخطي المناهج الكلاسيكية في النقد والقراءة والتفسير عن طريق الاستعانة. بما تحقق من تراكمات وإنجازات في العلوم اللغوية والاجتماعية(مصطفى ناصف، 2000)، فهذه المناهج قامت بالأساس على تجاوز سلطة النص التي تسعى إلى تكريس النموذج الواحد في فهم النص وتمثل معناه ومعارضة بشكل قطعي كل احتمالية للنص في تعدد المعاني.

فالتعدد في القراءة هو منبع الانفتاح الدلالي بحيث يجعل النص منفتحا على عوالم دلالية جديدة تتجدد بتجدد فعل القراءة. كما أن النص المفتوح يثير المتلقي ويستهويه من أجل الإقبال عليه(عبد المالك مرتاض، 2000).

كما اعتبر دعاة التأويلية أنه لا سبيل إلى معانقة الحداثة إلا بالتخلي عن المناهج الكلاسيكية القديمة المنسوبة إلى المفسرين القدماء في قراءة النصوص وتأويلها(محمد المتقن، 2004، 33). لأنها مناهج عقيمة غير منتجة تنتصر للمعنى الواحد ولا تلتفت إلى الانفتاح.....إضافة انها تتقيد بشكل شديد بالمعايير دون ولا تنفك عنها فهي بهذا قراءة معيارية للنص

فالمنطلق المنهجي في التفاسير الكلاسيكية أن القرءاني يحمل معنى واحدا أودعه الله في كتابه والمفسر كلف باستمداد هذا المعنى بدون زيادة. واية زيادة فهي تكليف غير مطلوب..

ومن أبرز التحولات المعرفية التي عرفها الاتجاه التأويلي في قراءة النصوص ونقدها هو انتقال هذا المنهج من نقد النصوص الدينية القديمة التي نقد النصوص البشرية خاصة ما كان من قبيل النصوص الأدبية والنقدية(حسن حنفي، 1992).

ولقد ساهم في هذا التطور التحول الكبير الذي مس الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية في الآونة الأخيرة بسبب تداخل هذه العلوم مع العلوم الإنسانية واستفادتها من مناهجها ونتائجها. بحيث أخذت هذه المناهج تعبر إلى الدراسات الأدبية والنقدية بدعوى أن هذه المناهج بمقدورها حل مشكلة ومعضلة تفسير النصوص لأن من أساسيات هذه المناهج هو أن السلطة في قراءة النص هي للقارئ.

" فالتفسير الخاضع لسلطة النموذج الذي وقع عليه القبول يتطلب تحييد الذات المفسرة وتجاهلها من حيث هي كينونة تنتمي إلى سياق تاريخي وثقافي ليتحول التفسير إلى عملية آلية يتحكم فيها مأثور السلف وتتحكم فيها قواعد اللغة العربية (أبو زيد، 1981).

-المواقف والاتجاهات اتجاه القراءات الحداثية للنص القرآني:

اختلفت المواقف والاتجاهات اتجاه القراءة الحداثية للنص القرآني وأخذت منحين:

1-اتجاه يعارضها بالمرة لأنها قراءة تفرغ القرءان عن مضمونه ومحتواه .فهذا الاتجاه يرى ان "القراءة الحداثية للنص القرآني تهدف إلى تخطي المعاني الأصلية في القرآن الكريم، إذ كانت غايةُ القراءة الحداثية للقرآن الكريم تفريغَ القرآن من مضمونه الإعتقادي والتشريعي والأخلاقي، وتحويله إلى وعاء فارغ من المعنى لكل ما يمكن أن يلصق به من المعاني والأفكار"(نظرات في القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي).

ومما استند إليه الرافضون لهذه المناهج تخضع النص القرآني لمناهج النقد الغربي، إذ أن القرآن لا نستطيع الشك في صحة النص الذي بين أيدينا اليوم. إنه نفس النص (المصحف) الذي جمع ورتب وأقر كنص رسمي زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان. وكما هو معروف فلقد كان للنبي كتاب يكتبون الوحي، أي القرآن، وكان هناك حرص شديد على أن لا يكتب غيره من كلام النبي حتى لا يقع اختلاط. وكان لكل من كتاب الوحي "مصحف" يتكون من مجموع ما كتبه من الآيات، وكان نزول القرآن قد استمر مدة 23 سنة إذ كان ينزل منجما مقسطا حسب ما تقتضيه الظروف والأحوال. ويتحدث المؤرخون عن عمليات تمهيدية لجمع القرآن تمت زمن أبي بكر وعمر.

ومهما يكن فإن الثابت تاريخيا هو أنه في زمن عثمان شكلت "لجنة" من كتاب الوحي لجمع ما عندهم من القرآن ومقارنة مصاحفهم بعضها مع بعض والخروج بنسخة واحدة رسمية هي المصحف المتداول منذ ذلك الوقت إلى اليوم. أما النسخ الأخرى، أعني ما كان قد جمعه كتاب الوحي أو غيرهم، كلا على حدة، فقد صدر الأمر بإحراقها لتجنب الخلط.

هذه الوقائع تجمع عليها كتب التاريخ من مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية. ولا شيء يشجع أو يبرر الشك فيها ولا حتى اصطناع الشك المنهجي بصددها. نعم تتحدث بعض الروايات عن "مصحف ابن مسعود" أو غيره وعن بعض الاختلافات بينه وبين المصحف العثماني، كما تشير روايات أخرى إلى أن سورة من سور القرآن كانت أطول مما هي عليه اليوم. ولكن جميع هذه الاختلافات -على الأقل كما تذكرها الروايات التي بين أيدينا- لا

تمس من قريب ولا من بعيد صحة النص القرآني ككل، مثلما أن اختلاف "القراءات"، وهو شيء معترف به لا ينال هو الآخر من صحة النص القرآني، كما تداوله المسلمون عبر العصور(1).

ولا يستقيم القول مثلا بأنه من الممكن افتراض أن تكون هناك اختلافات جوهرية بين النص كما جمع ورسم زمن عثمان وبين القرآن كما تلقاه الناس زمن النبي. ذلك لأن المسلمين والصحابة أنفسهم قد اختلفوا وتنازعوا وقامت بينهم حروب الخ... ومع ذلك لم يتهم أي منهم طرفا ما بالمس بالقرآن كنص. وكان هناك من بين كبار الصحابة خصوم لمعاوية (الذي كان من كتاب الوحي)، قاتلوه يوم صفين وهم يخاطبونه وقومه الأمويين قائلين: "قاتلناكم على تنزيله واليوم نقاتلكم على تأويله". بمعنى أن هؤلاء الصحابة قاتلوا قريشا بزعامة بني أمية وعلى رأسهم أبو سفيان -قبل أن يدخلوا الإسلام ويؤمنوا بالقرآن وحيا منزلا- و "اليوم"، يوم صفين، يقاتلونهم على "تأويله": تأويل القرآن. وإذن فالخلاف والنزاع زمن عثمان ومعاوية كان حول "التأويل" ولم يكن يمس في شيء "التنزيل" (=النص). أما ما يروى عن بعض الشيعة من أنهم شككوا في آية أو آيتين، سواء على مستوى الصيغة أو على مستوى البتر، فإن أيمة الشيعة في الماضي والحاضر يتبرؤون من ذلك ويجمعون على أن القرآن كما هو متداول اليوم هو نفسه القرآن كما كان زمن النبي(2).

وإذن فليس هناك مجال لممارسة "النقد التاريخي" حول صحة النص القرآني، ولا أعتقد أنه قد يكشف عن شيء آخر غير ما هو معروف أي ما ذكرناه أعلاه ملخصا.

هذا بالنسبة لصحة نص القرآن. أما بالنسبة للحديث فالأمر يختلف. والمسلمون يميزون فيه بين المتواتر وبين حديث الآحاد. أما المتواتر، وهوالذي روته جماعة لا يصح اتفاقها على الكذب لكثرة أفرادها وتفرقهم، فقليل جدا وليس فيه ما يحمل على الشك فيه إذ يتسق اتساقا تاما مع ما يقرره القرآن من عبادات وأخلاق. وأما حديث الآحاد، أي الذي رواه شخص عن آخر إلى النبي فقد كان موضع نقد واسع. إن نقد الرواية في هذا النوع من الحديث قد مورس منذ عصر التدوين، وهناك من علماء المسلمين وأئمتهم من يتشدد في

صحة ما يروى عن النبي من حديث الآحاد فلم يقبل إلا بضعة أحاديث تتعلق بالعبادات. وهناك بالعكس من هؤلاء من يتساهل ويقبل الصحيح والضعيف. والوضع في الحديث معروف مدروس. وكتب الحديث الصحيحة، كصحيح البخاري وصحيح مسلم إنما هي صحيحة بالنسبة للشروط التي وضعها أصحابها لقبول الحديث. الحديث الصحيح ليس صحيحا في نفسه -بالضرورة- وإنما هو صحيح بمعنى أنه يستوفي الشروط التي اشترطها جامع الحديث كالبخاري ومسلم. ونقد الحديث يتناول نقد السند، كما قد يتناول مضمونه. أما نقد السند أو الرواية فلهم في ذلك قواعد وأساليب تقوم على "التعديل والتجريح". أما نقد المضمون -ولو أن الاهتمام به أقل- فيقوم على اعتبار السنة النبوية (قولا وعملا وإقرارا) مبينة للدين شارحة للقرآن وبالتالي يجب ألا يتناقض الحديث مع القرآن. وإذن "فالنقد التاريخي" بالنسبة للحديث قد مورس على نطاق واسع منذ عصر التدوين وهو يشكل جزءا من التراث وهو قابل للنقد كغيره من أجزاء التراث الأخرى.

أما ما يتعلق بفهم القرآن، أعني تفسيره وتأويله، فالباب مفتوح على مصراعيه أمام كل من يأنس من نفسه القدرة على ذلك من حيث الكفاءة اللغوية والاطلاع على تاريخ نزول القرآن، أعني الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول الخ... مما هو مفصل فيما يعرف بـ"علوم القرآن". والقرآن مفتوح بأسلوبه البياني لأنواع من التفسير والتأويل. وهناك فعلا أنواع كثيرة من هذا وذاك.

أما علاقته بالجماعة الإسلامية الأولى وحياتها اليومية فموضوع للدراسة والبحث منذ زمن الوحي: فالتمييز في القرآن بين المكي منه والمدني، بين الناسخ والمنسوخ، وربطه بأسباب النزول وبسيرة الرسول وبأساليب العرب في التعبير الخ... كل ذلك كان وما يزال مجالا للاجتهاد ولا شئ يمنع من تطبيق الأساليب الحديثة في هذا المجال.

موقف لا يعارض هذه القراءات ما دامت تحافظ على الأصول. والأمثلة في هذا الباب كثيرة حيث أنجزت عدة بحوث في الموضوع.

والذي يبدو أن الموقف الثاني أكثر إصابة في التوجه....والأمثلة في هذا الباب كثيرة .

قائمة المراجع

- أحمد الطعان. (2009). موقف الفكر العربي العلماني من النص القرآني ، دار الفكر الرياض.

- إدريس الطعان. (د ت). القرآن الكريم والتأويلية العلمانية، دار الفكر الرياض.

- الجيلالي بن التوهامي. (2006). الفهم الحداثي للنص القرآني ضمن أعمال مؤتمر مناهج التفسير ماليزيا.

- الشاهد البوشيخي. (د ت). الجامع لتفسير القرءان الكريم اعده مركز مبدع واشرف عليه الدكتور وهو عرض بلاهم الكتب المدونة في تفسير القرءان الكريم.

- الموافقات:4/.117

- حسن حنفي. (1992). قراءة النص، مجلة البلاغة المقارنة ، ع8.

- رقية العلواني. (2006). قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة، بيروت.

- عبد المالك مرتاض. (2000). التأويلية بين المقدس والمدنس، الدكتور. مجلة عالم الفكر م (29)، ع(1).

- عبد المجيد النجار. (2006). القراءة الجديدة للنص الديني، مركز الراية.

- فاضل تامر. (1988). من سلطة النص إلى سلطة القراءة، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع (49 و 48).

- محمد المتقن. (2004). في مفهومي القراءة والتأويل ، مجلة عالم الفكر م (33).

- محمد محمود كالو. (2010). القراءات المعاصرة للقرآن على ضوابط التفسير، دار اليمامة، مصر.

- مركز الدراسات والمعلومات القرآنية. (2011). دليل المطبوعات في الدراسات القرآنية:55. إعداد بمعهد الامام الشاطبي.

- مصطفى ناصف. (2000). نظرية التأويل، ط1، النادي الأدبي الثقافي، جدة.

- ناصر ابو زيد. (1981). الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص، مجلة فصول العدد:3 ابريل 1981.

- ناصر أبو زيد. (1989). الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية: 89.

- ندوة الرابطة المحمدية للعلماء. (2008). الاستمداد من الوحي، وكانت في مناهج وأصول التفسير.

- وجيه قانصو. (1430ه). الفاعليات الحاضرة والمغية في فهم النص.مجلة إسلامية معاصرة ع(45.46).